النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والعمر الإنتاجي

٤/ ٨/ ١٤٣٧هـ

شخصان كلاهما عاش أربعين عامًا في هذه الحياة: الأول كان الهدف عنده واضحًا من البدايات، وأدرك أنه لن يعيش مرتين، فاستثمر وقته في أعمال تلتقي مع أهدافه، وتتواءم مع ميوله وميدانه الذي يحسن الجري فيه، وأما الآخر -الذي عاش العمر نفسه- فهو شخص عاش عمره الافتراضي، فولد عاديًّا، وعاش عاديًّا، ومات عاديًّا! مع رجاء الخير لكل من مات على التوحيد، مهما بلغ تقصيره، إن سلم من حقوق العباد.

هذا المعنى الجليل تناوله علماء الشريعة عند بحثهم في معنى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه**»[1]، حيث تحدثوا عن صفة النسأ في الأثر -أي تأخير الأجل-، ومن التوجيهات المشهورة الراجحة في معناه، ما قاله النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على مسلم: «أن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك»[2]،

(١) رواه البخاري (رقم٥٩٨٦)، ومسلم (رقم٢٥٥٧).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١١٤).

وكأن النـــووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبـــين لنا في اختيـــاره هذا أهم المعـــالم التي قادته للنجاح في حياتـــه، فالنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نموذج حاضر، وشـــخصية ممتازة لتكون شاهدًا على تحقيق أفضل الدرجات في العمر الإنتاجي الذي دلّت عليه هذه البشـــارة النبوية، فإنه لم يعش سوى خمسةٍ وأربعين عامًا، وملأ الدنيا علمًا، وصارت مصنفاته محلّ عنايـــة العلماء من جميع المذاهب، فما السبب يا ترى؟ إن لذلك أسبابًا كثيرة، لعل من أبرزها: الصدق مع الله، وإخلاص العمل، ثم غيرته على وقته، التي ظهرت آثارها بشكل جليّ في سنيّ التحصيل -اثنا عشر درسًـــا في اليوم- ثم الانكباب على التصنيف بعد اكتمال الآلة.

كم نحن في حاجة لدراسة أمثال هذه الشخصيات المتميزة، المؤثرة في عطائها! وهي في نظري من أهم المحفّزات التي تدفع لاغتنام ســـاعات العمر، والبحث عن موطئ قدمٍ في هذه الأمّة، التي باتت اليوم أحوج ما تكون لكل طاقة شابة من طاقات أبنائها.

نسمع في مقتبل الإجازات أحاديث عن اغتنام الوقت، وتتنوع أمامنا المقترحات، والوســـائلُ التـــي يُعْمَرُ بها الوقت، ولكـــنْ قليلٌ من يكون جادًّا في ذلك، وتمضي عليه الأيام والأســـابيع والأشهر دون إنتاج يُذْكَر، فما الســـبب؟ لعل من أهم الأســـباب: عدمُ وضوح الهدف، وقلةُ الغيرة على الوقت -الذي هو أغلى من المال عنـــد العقلاء- والتخبطُ في تحديد الأولويات، والانهماك في وســـائل التقنية -ومنها وســـائل التواصل-، وغيرها من الأســـباب التي تحـــدث عنها الكثيرون ممـــن كتب في إدارة الوقت.

والمقامُ ليس مقامَ تفصيل لهذه المشكلة، ولستُ بصدد طرح مشروعات عملية لذلك، فقد كَتبَ في هذين الموضوعين كثيرون -كما أسلفت-، وإنما هي لفتةٌ من محب لأمته، ولأفرادها -خاصة الشباب- أن يعيد كل واحد منهم النظر في هذا الموضوع المفصلي في حياته... لينظر إلى الوراء، وليتأمل: متى ولد؟ وماذا أنجز؟

ومما يحسن التنبيه عليه: أننا حين نتحدث عن هذا الموضوع، فإننا لا نعني بالضرورة الانشغال بالعلم الشرعي فحسب -ولا شك أنه أشرف ما اشتغل به الإنسان- كلا، إذْ لا يعقل أن تُوجّه الأمة كلها لذلك، فهذا مصادم للسنن، والأمة محتاجة إلى طاقات كثيرة في كل ميدان نافع من ميادين نفع الخلقِ في دينهم ودنياهم، وإنما المقصود: التنبيه على تلك القاعدة النبوية العظيمة التي قالها من أوتي جوامع الكلم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**»[1]، وقول الله أبلغ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧].

والمهم أن يعزم الإنسان على نفع أمته فيما يُحْسنه، ثم ينطلق مستعينًا بالله، مستنيرًا بآراء أهل الخبرة والمشورة؛ ليضع له بصمةً في تاريخ أمته، ولْيتذكر أن هذه الأمة ولود، فالأمة التي أنجبت الأئمة الأربعة، وأكابر المجددين في القرون الماضية، كالنووي، وابن تيمية، وابن حجر، وابن عبدالوهاب، والشوكاني رَحِمَهُمُ اللَّهُ، هي التي أنجبت في هذا العصر المعلّمي اليماني، وأحمد شاكر، وابن باز، والألباني، وابن عثيمين، وعبدالرحمن

(١) رواه البخاري (رقم٦٦٠٥)، ومسلم (رقم ٢٦٤٨).

السميط، وغيرهم كثير رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أجمعين ممن سطّروا أسماءهم بأحرف من نور، وصار لهم أثرٌ مبارك في هذه الأمة.

إنني أنا وأنت وأولئك نشترك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]، فلنحاذر أن نعيش على هامش الحياة، ونموت دون أن يكون لنا أثر.